

## إعادة قراءة التراث بين محمد عابد الجابريّ وطه عبد الرحمان

جواد الفلاق<sup>(1)</sup>

### مقدّمة:

إنّ إعادة قراءة التراث؛ سواء الدينيّ أو الفكريّ أو الأدبيّ، ليست سوى إعادة اعتبار لهذا التراث الذي يقول المفكّر السوري الطيّب تيزيني عنها: إنّ المفكّرين العرب قد عاملوها طوال سبعة قرون؛ كما تعامل زوجة الأب الغيورة ربائبها، بكثير من التعسّف والرغبة في الإخضاع.

وكثير هم المفكّرون العرب والعجم الذين قاربوا التراث العربيّ الإسلاميّ؛ كحسين مروّة، والطيّب تيزيني، وعابد الجابريّ، وطه عبد الرحمان... وفي هذه القراءة، سنحاول الوقوف مع عالمين مغربيّين؛ هما: عابد الجابريّ، وطه عبد الرحمان؛ لنرصد معالجة كلّ منهما لقضيّة التعامل مع التراث والطعون التي وجهها أحدهما إلى الآخر.

لقد ألّف الجابريّ في بداية تعامله مع التراث كتابه «نحن والتراث»، ولعلّ أهمّ ما يميّز الكتاب هو عرضه لمشروع «قراءة جديدة للتراث»، قراءة تقول عن نفسها إنّها معاصرة تعتمد الفصل والوصل؛ فصل التراث عنّا ليكون معاصراً لنفسه، ووصله بنا ليكون معاصراً لنا، كما يقوم مشروع الجابريّ على تجاوز القراءات السابقة للتراث، والتي يصفها كلّها بكونها

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

«قراءات سلفية»<sup>(1)</sup>؛ ف« الفكر العربي الحديث والمعاصر هو في مجمله فكر لا تاريخي يفترق إلى الحد الأدنى من الموضوعية، ولذلك كانت مقاربتة للتراث مقارنة سلفية تنزه الماضي عن النقد وتقده وتستمّد منه الحلول الجاهزة لمشاكل الحاضر والمستقبل. وإذا كان هذا الأمر ينطبق بجلاء على التيار الديني، فهو ينطبق -أيضاً- على التيارات الأخرى؛ ذلك أنّ لكلّ منها سلفاً يتكئ عليه ويستنجد به»<sup>(2)</sup>.

حسب الجابري، فإنّ هناك ثلاث طرائق رئيسية في التعامل مع التراث العربي الإسلامي؛ وهذه الطرق تتخذ ثلاث صور منهجية في مقارنة التراث؛ المقاربة التقليدية، والمقاربة الاستشراقية، والمقاربة الماركسية.

## أولاً: مقارنة محمد عابد الجابري للتراث:

### 1. قراءات التراث عند الجابري:

#### أ. القراءة التراثية للتراث:

وهي قراءة تقليدية ترتكز على التعامل التقليدي مع التراث، هذا التعامل مرده إلى البيئة الثقافية التي أنتجت هؤلاء المفكرين الذين تخرجوا من المعاهد العتيقة؛ كجامع القرويين في المغرب، والأزهر في مصر، والزيتونة في تونس. وتوصف مقاربتهم بكونها سلفية ماضوية تغيب عنها روح الجدة والإبداع والنقد العلمي الهادف إلى غربلة التراث والاستفادة منه، بل تركز إلى إعادة إنتاج ما سبق إنتاجه؛ لذلك سمى الجابري هذه القراءة بالقراءة التراثية للتراث في كل فروع الدين واللغوية والأدبية. لقد أدت تراثية هذا المنهج إلى أن يقع في آفتين اثنتين؛ هما: غياب الروح النقدية، وفقدان النظرة التاريخية، واجترار النتائج السابق بشكل مجتزأ<sup>(3)</sup>.

(1) انظر: الجابري، محمد عابد: نحن والتراث، ط5، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1986م، ص12.

(2) م.ن، نحن والتراث، م.س، ص19.

(3) انظر: الجابري، محمد عابد: الخطاب العربي المعاصر، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي؛ بيروت، دار الطليعة، 1982م، ص77.

وهذه القراءة اللا تاريخية واللا عقلانية، أنتجت فهماً واحداً للتراث هو الفهم التراثي للتراث، وكأنها التراث يكرّر نفسه؛ ما جعلها تفتقر لعنصري الجدة والمعاصرة<sup>(1)</sup>. ومعنى هذا أن القراءة التراثية للتراث يسبغ عليها أهلها الطابع الديني السلفي الذي يجردّها من كلّ نفحة نقدية أو رغبة في إخضاع التراث إلى متطلبات الحداثة.

### ب. القراءة الليبرالية للتراث:

أو القراءة الاستشراقية، وقد انطلقت من التساؤل عن الطريقة التي تمكّنا من عيش عصرنا الحاضر والتعامل مع تراثنا الماضي في الوقت ذاته، والمقصود بالحاضر -هنا- هو الحاضر الغربي الأوروبي؛ ذلك الحاضر الذي استهوى المفكر العربي الليبرالي وجعله مقياساً قاس عليه التراث العربي الإسلامي، فتلاقت قراءته «الأوروبوية» مع ما يراه الغربي وما يقارب به المستشرق - الذي يعاني من مرض المركزية الأوروبية - التراث العربي، ومن ثمّ افتقرت هي الأخرى لكلّ ما من شأنه أن يجعلها قراءة جديدة أو معاصرة، ولذلك فالجابري يصفها -أيضاً- بكونها قراءة سلفية مستندة إلى سلف أوروبي هذه المرة<sup>(2)</sup>.

إنّ القراءة الاستشراقية للتراث العربي الإسلامي وُسمت بكونها نزعة استعمارية، تعادي كلّ ما هو إسلامي واصفة إياه بالرجعية والتخلف، رافعة العقلية الغربية (الآرية) على الشرقية (السامية)، ويظهر ذلك بجلاء عند بعض المستشرقين الذين أنكروا أي وجود للفلسفة الإسلامية، رافعين معاول الهدم ضدّ علم الكلام والتصوّف الإسلامي... مدّعين أنّ العقلية السامية لا تستطيع أن تفكّك وتركّب في إطار تجريديّ يمكن من بناء أنساق فكرية، وأنّهض مثال على هؤلاء نجد المستشرق الألمانيّ أرنيست رينان.

(1) انظر: الجابري، نحن والتراث، م.س، ص 13.

(2) م.ن، ص 14.

لقد حكمت هذه النزعة الاستشراقية المركزية الأوروبية التي تدّعي أنها الأنموذج المعرفي الأوحّد، لذلك نجد المستشرق يُرجع كلّ ما هو عربيّ إلى «المنبع» الغربيّ؛ ذلك أنّه «يفكر شمولياً في الفلسفة الإسلاميّة، لا بوصفها جزءاً من كيان ثقافيّ عامّ، هو الثقافة العربيّة الإسلاميّة، بل بوصفها امتداداً منحرفاً أو مشوّهاً للفلسفة اليونانيّة، وبالمثل، يفكر في النحو العربيّ ومدارسه، يوجّهه هاجس ربطها بمدارس النحو اليونانيّة في الإسكندريّة أو برغام، وبيان تأثرها بالمنطق الأرسطيّ، كما لا يتردّد في ربط الفقه الإسلاميّ، نوعاً من الربط، بالقانون الرومانيّ وما خلفه في المنطقة العربيّة من آثار وأعراف»<sup>(1)</sup>.

إنّ همّ المستشرق المشبع بنزعات المركزية الأوروبية هو الانتقال من الثقافة العربيّة وعزوها إلى الجذور الأوروبية؛ ذلك أنّه «عندما يتّجه إلى الثقافة العربيّة الإسلاميّة، بنظرته التجزيئيّة، لا يعمل على ردّ فروعها وعناصرها إلى جذور وأصول تقع داخلها، أو على الأقلّ مقروءة بتوجيه من همومها الخاصّة، بل هو يجتهد كلّ الاجتهاد في ردّ تلك الفروع والعناصر إلى أصول يونانيّة، أو عندما تعوزه الحجّة إلى أصول هندو-أوروبيّة، الشيء الذي يعني المساهمة، ولو بطريقة غير مباشرة، في العمليّة نفسها، عمليّة خدمة «النهر الخالد»، نهر الفكر الأوروبيّ الذي نبع أوّل مرّة من بلاد «اليونان»<sup>(2)</sup>، بل إنّ العربيّ ما هو إلاّ غبيّ عاجز عقلاً وفكراً؛ كما نقل إدوارد سعيد عن كرومر قوله: «فالعرب ليسوا سوى سدّجاً غافلين، محرومين من الحيويّة والقدرة على المبادرة، مجبولين على حبّ الإطراء الباذخ، والدسيسة (...) فعقولهم الفوضويّة تعجز عن فهم ما يدركه الأوروبيّ»<sup>(3)</sup>.

(1) الجابريّ، الخطاب العربيّ المعاصر، م.س، ص 80.

(2) م.ن، ص 81.

(3) سعيد، ادوارد: الاستشراق، ترجمة: نذير جزماتي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ص 63.

ولم يتوقّف الفكر الاستشراقيّ عند أهله، بل كوّن قاعدة من المثقّفين العرب الذين تلقّفوا هذه الأفكار، وأصبحوا مروّجين ومنتجين لها؛ بفعل التبعية الثقافية، حيث أصبحت «الصورة العصريّة الاستشراقويّة الرائجة في الساحة الفكرية العربيّة الراهنة عن التراث العربيّ الإسلاميّ؛ سواء منها ما كتّب بأقلام المستشرقين، أو ما صنّف بأقلام مَنْ سار على نهجهم من الباحثين والكتّاب العرب، صورة تابعة. إنّها تعكس مظهرًا من مظاهر التبعية الثقافية، على الأقلّ على صعيد المنهج والرؤية»<sup>(1)</sup>.

### ج. القراءة الماركسية للتراث:

هذه القراءة، كذلك، اتّكأت على عصا السلفية الماركسيّة السابقة، هدفها تكرار تطبيق المنهج الماركسيّ - كما طبّق في الواقع الأوروبي - على التراث الإسلاميّ، دونما مراعاة لخصوصيّة هذا التراث<sup>(2)</sup>. فهي -أيضًا- تشغل ضمن نزعة المركزيّة الأوروبيّة، ويمثّلها في البيئة العربيّة بعض الأعلام؛ مثل: حسين مروّة، والطيب تزييني... وتمتاز النزعة الماركسيّة عن النزعة الاستشراقويّة؛ «بكونها تعي تبعيتها للماركسيّة، وتفخر بها. ولكنها لا تعي تبعيتها الضمنيّة للإطار نفسه الذي تصدر عنه القراءة الاستشراقويّة لتراثنا. إنّ المادّيّة التاريخيّة التي تحاول هذه الصورة اعتمادها؛ كمنهج مطبّق، وليس كمنهج للتطبيق، مؤطّرة هي الأخرى داخل إطار المركزيّة الأوروبيّة: إطار عالميّة تاريخ الفكر الأوروبيّ، بل التاريخ الأوروبيّ عامّة، واحتوائه لكلّ ما عداه، إنّ لم يكن على صعيد المضمون والاتّجاه، فعلى الأقلّ، وهذا أكيد، على صعيد المفاهيم والمقولات الجاهزة. وهذا يكفي ليجعل الصورة الماركسيّة لتراثنا العربيّ الإسلاميّ تقوم هي الأخرى على الفهم من خارج هذا التراث؛ مثلها مثل الصورة الاستشراقويّة؛ سواء بسواء»<sup>(3)</sup>.

(1) الجابريّ، الخطاب العربيّ المعاصر، م.س، ص 81.

(2) انظر: الجابريّ، نحن والتراث، م.س، ص 15.

(3) الجابريّ، الخطاب العربيّ المعاصر، م.س، ص 81-82.

ويلاحظ الجابري أنّ هذه القراءات كلّها وقعت في عيبيّن منهجيين متلازمين؛ هما: غياب الموضوعية، وغياب الرؤية التاريخية؛ ذلك أنّ «القراءات الثلاث التي تحدّثنا عنها قراءات سلفية، وبالتالي لا تختلف جوهرياً عن بعضها بعضاً، من الناحية الإبيستمولوجية؛ لأنّها مؤسّسة فعلاً على طريقة واحدة في التفكير، الطريقة التي سمّاها الباحثون العرب القدامى بـ «قياس الغائب على الشاهد»<sup>(1)</sup>.

إنّ هذه القراءات عملت على إلغاء مقتضيات الزمان، ومتطلّبات المكان، وعوامل التطور التاريخي؛ كما أنّها لم تفصل بين الذات والموضوع؛ ما جعلها دون جدوى.

## 2. منهجية الجابري في التعامل مع التراث:

يرى محمد عابد الجابري أنّ التراث العربي الإسلامي يتمثّل في جملة من العلوم الإسلامية؛ كالعقيدة، والشريعة، واللغة، والأدب، وعلم الكلام، والفلسفة، والتصوّف، وغير ذلك، فالتراث هو كلّ ما أنتج في فترة زمنية تقع في الماضي، وتفصلها عن الحاضر مسافة زمنية ما شكّلت خلالها هوية حضارية فصلتنا وما زالت تفصلنا عن الحضارة المعاصرة؛ الحضارة الغربية الحديثة. ومن هنا، فإنّه ينظر إلى التراث على أنّه شيء يقع هناك. فما يميّز التراث العربي الإسلامي هو أنّه مجموعة عقائد ومعارف وتشريعات ورؤى، بالإضافة إلى اللغة التي تحملها وتؤطّرها، تجد إطارها المرجعي التاريخي والإبيستمولوجي في عصر التدوين (القرن الثاني والثالث للهجرة) وامتداداته التي توقّفت آخر تموجاتها مع قيام الإمبراطورية العثمانية في القرن العاشر للهجرة (السادس عشر للميلادي)؛ أي مع انطلاق النهضة الأوروبية الحديثة. إذًا، فالتراث العربي الإسلامي - منظوراً إليه من داخل منظومة مرجعية تتخذ الحضارة الراهنة؛ حضارة القرن العشرين، نقط

(1) الجابري، نحن والتراث، م.س، ص 17.

إسناد لها - هو إنتاج فكريّ وقيم روحيّة دينيّة وأخلاقيّة وجماليّة... تقع هناك فعلاً؛ أي: خارج الحضارة الحديثة، ليس بوصفها منجزات مادّيّة وصناعيّة فقط، بل -أيضاً- بوصفها نظاماً معرفيّة ومنظومات فكريّة وأخلاقيّة وجماليّة... وبما أننا نعيش هذه الحضارة - على الأقلّ منفعلين، إن لم نكنّ مستلبين- ونحلم بالانخراط الواعي الفاعل فيها، فإنّه لا بدّ من أن نشعر- وهذا ما هو حاصل فعلاً- أننا نزداد بعداً عن تراثنا؛ بازدياد ارتباطنا مع هذه الحضارة، وإنّ المسافة بين هناك وهنا تزداد اتّساعاً وعمقاً. وهذا الشعور يغذيّ في فريق منّا الحنين الرومانسيّ إليه، وفي الوقت نفسه، ينميّ في فريق آخر منّا الرغبة في القطيعة معه، والانفصال التامّ عنه<sup>(1)</sup>.

وتأسيساً على هذا النظر يقترح الجابريّ قراءة بديلة للقراءات الثلاث، قراءة تقوم على الفصل والوصل، فهي تتأسّس على تلافي الأخطاء المنهجية التي وقعت فيها القراءات التي نعتها بالتراثية، وقد تحدّث الجابريّ عن ثلاث خطوات منهجية لقراءة التراث:

أ. القطيعة مع القراءة التراثية للتراث؛ أي التحرّر من الرواسب التراثية في عملية فهمنا للتراث؛ كاستبعاد القياس النحويّ-الفقهيّ- الكلاميّ، وغير ذلك من الرواسب<sup>(2)</sup>.

ب. فصل المقروء عن القارئ؛ وذلك لحلّ مشكلة الموضوعيّة في القراءة التراثية<sup>(3)</sup>. ويقوم هذا الفصل على مقارنة بنيويّة تتلخّص في معاملة فكر صاحب النصّ كتلةً واحدةً؛ كلفةً تتحكّم فيها ثوابت ومتغيّرات يجب أن تجد معها كلّ فكرة جزئية مكانها داخل هذا الكلّ<sup>(4)</sup>، ومقاربة تاريخيّة تربط فكر صاحب النصّ بالعوامل التاريخيّة التي تتحكّم في

(1) انظر: الجابريّ، الخطاب العربيّ المعاصر، م.س، ص 83-84.

(2) انظر: الجابريّ، نحن والتراث، م.س، ص 20.

(3) انظر: م.ن، ص 21.

(4) انظر: م.ن، ص 24.

توجيهه، ومقاربة أيديولوجية تمكن من الكشف عن الأدوار والوظائف التي لعبها هذا الفكر في فضاءه السياسي والاجتماعي.

ج. وَصَلُ التُّرَاثُ بِنَا؛ أَي جَعَلَ التُّرَاثَ مَعَاصِرًا لِنَفْسِهِ وَمَعَاصِرًا لَنَا فِي الْآنِ نَفْسِهِ؛ وَذَلِكَ بِإِعَادَةِ إِنتَاجِ التُّرَاثِ بِشَكْلِ جَدِيدٍ يُمْكِنُ مِنْ عَصْرِنْتِهِ وَجَعَلَهُ يَوَاكِبَ تَطَوَّرَ المَجْتَمَعُ، «فَالْمَقَدَّمَاتُ بِنَتَائِجِهَا، وَالْمَاضِي بِمُسْتَقْبَلِهِ، وَمَا كَانَ بِمَا سَيَكُونُ، فَيَنْدَمِجُ المَوْضُوعِيَّ مَعَ الأَيْدِيُولُوجِيِّ، وَيَتَحَوَّلُ المَسْتَقْبَلُ-المَاضِي الَّذِي كَانَتِ الذَّاتُ المَقْرُوءَةُ تَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ إِلَى المَسْتَقْبَلِ-الْآتِي الَّذِي تَجْرِي الذَّاتُ القَارِئَةُ وَرَاءَهُ، فَيَصْبِحُ المَقْرُوءُ المَعَاوِرَ لِنَفْسِهِ، مَعَاصِرًا لِقَارِئِهِ»<sup>(1)</sup>. وَذَلِكَ فِي أَفْقٍ تَجَاوَزَهُ إِلَى تَرَاثٍ جَدِيدٍ، حَيْثُ «إِنَّ الحَدَاثَةَ تَبْدَأُ بِاحْتِوَاءِ التُّرَاثِ وَامْتِلَاكِهِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَحْدَهُ هُوَ السَّبِيلُ إِلَى تَدْشِينِ سَلْسَلَةٍ مِنْ «الْقَطَائِعِ» مَعَهُ إِلَى تَحْقِيقِ تَجَاوُزِ عَمِيقٍ لَهُ، إِلَى تَرَاثٍ جَدِيدٍ نَصْنَعُهُ، تَرَاثٍ جَدِيدٍ فَعَلًا»<sup>(2)</sup>؛ لِأَنَّ «الإِبْدَاعَ بِمَعْنَى التَّجْدِيدِ الأَصِيلِ لَا يَتِمُّ إِلَّا عَلَى أَنْقَاضِ وَاقِعٍ قَدِيمٍ، وَاقِعِ احْتِوَاؤُهُ وَتَمَثُّلِهِ وَتَجَاوُزِهِ بِأَدْوَاتٍ فِكْرِيَّةٍ مَعَاوِرَةٍ»<sup>(3)</sup>.

أَمَّا رُؤْيَاةُ الجَابِرِيِّ لِمَنْ يِقَارِبُ التُّرَاثَ؛ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ «رَشْدِيًّا» أَوْ «رَجْعِيًّا».

وَيُحَدِّدُ عُنَاوِرَ قَرَاةَتِهِ فِي ثَلَاثَةِ اعْتِبَارَاتٍ أُسَاسِيَّةٍ؛ هِيَ:

اعْتِبَارُ الفَلْسَفَةِ الإِسْلَامِيَّةِ؛ بِوَصْفِهَا بِضَاعَةً أُصِيلَةً لِمَجْتَمَعِ العَرَبِيِّ الإِسْلَامِيِّ؛ وَهِيَ الَّتِي عَكَسَتْ مَشَاكِلَهُ وَأَلَامَهُ، وَحَمَلَتْ أَمَالَهُ وَأَحْلَامَهُ، فَكَانَتْ بِالفِعْلِ ضَمِيرَهُ.

اعْتِبَارُ تَارِيخِ الفَلْسَفَةِ الإِسْلَامِيَّةِ بِدَأْ مَعَ تَعَرُّفِهِ عَلَى الفَلْسَفَةِ اليُونَانِيَّةِ؛ لِمَا لِلتَّارِيخِ مِنْ أَهْمِيَّةٍ فِي اسْتِكْنَاهِ المَسْتَقْبَلِ.

(1) الجابري، نحن والتراث، م.س، ص24.

(2) الجابري، محمد عابد: حوار الشرق والغرب، الدار البيضاء، 1995م، ص67.

(3) الجابري، محمد عابد: إشكالية الفكر العربي المعاصر، الدار البيضاء، 1989م، ص41.



الجزم بأن الرشدية هي ما يصلح لمجتمعنا للنهوض بما تبقى من تراثنا، حيث يقرّر الجابريّ أنّ «ما تبقى من تراثنا؛ أي ما يمكن أن يكون فيه قادراً على أن يعيش معنا عصرنا، لا يمكن أن يكون إلا رُشدياً، فكلّ من عاش أو يعيش لحظة ابن سينا بعد ابن رشد؛ إنّما قضى أو يقضي حياته (الفكرية) خارج التاريخ»<sup>(1)</sup>.

### ويحصر الجابري أقوى لحظات الرشدية في:

القطيعة مع السنيوية، التي تساوي عنده «الرجعية» و«التخلف» و«الظلامية»؛ حيث يقول إنّ «ما جعل الرشدية تدخل التاريخ في نظرنا هو قطيعتها مع السنيوية: على مستوى فهم الدين، وعلى مستوى فهم الفلسفة. إنّ الخطاب القرآنيّ هو خطاب عقل، وليس خطاب غنوص، أو «عرفان»، أو إشراق، (القطيعة مع ابن سينا والغزالي)، ولنقطع بدورنا قطيعة تامة ونهائية مع الروح السنيوية «المشرقية»، ولنخضها معركة حاسمة ضدها»<sup>(2)</sup>.

بناؤه لمشروع فكريّ بديل، مؤسس على منهج علميّ تقدّمي؛ ذلك أنّ «الروح الرشدية» هي سبيلنا إلى التحرر والتقدّم.

**وخلاصة القول:** إنّ الجابريّ قد حصر قراءات التراث في ثلاث وصفها كلّها بكونها قراءات تراثية سلفية؛ إمّا تستند إلى سلف عربيّ، أو سلف أوروبيّ؛ لذلك وجب التخلص منها، وإنتاج قراءة جديدة تقوم على تلافى الأخطاء السابقة، وتعالجها عبر وصل التراث بنا، وجعله معاصراً لنا، وفصل القارئ عن المقروء؛ من أجل تحقيق شرط الموضوعية العلمية.

(1) الجابريّ، إشكاليّة الفكر العربيّ المعاصر، م.س، ص 24.

(2) م.ن، ص 53.

## ثانيًا: مقارنة طه عبد الرحمان للتراث:

لقد اضطلع طه عبد الرحمن، بدور محوري في خلق أفق عربي إسلامي، ينتج فلسفته الخاصة التي تعيد النظر في أسباب تخلف العقل العربي، وتعطل النفس الإبداعي في ثقافتنا العربية الإسلامية المعاصرة، من خلال تشخيص العلل، ونقد المشاريع الفكرية التي قاربت هذه العلل؛ سواء المشاريع المحلية أو الأجنبية، من خلال العدة المنهجية والمعرفية التي يتسلح بها الرجل، فقد ألفت كتابه «تجديد المنهج في تقويم التراث»، حيث شيد نظريته في التراث، - قراءة وتقويمًا - وفق منهج يعتبره؛ كما يقول: «غير مسبوق ولا مألوف؛ فهو غير مسبوق؛ لأننا نقول بالنظرة التكاملية، حيث يقول غيرنا بالنظرة التفاضلية، وهو غير مألوف، لأننا توصلنا فيه بأدوات «مأصولة»، حيث توصل غيرنا بأدوات منقولة»<sup>(1)</sup>.

وقد تنبه طه عبد الرحمان إلى أن جلّ الذين اشتغلوا بالتراث؛ عربًا وعجمًا، اتصفوا بأمرين؛ هما: قلة الاطلاع، وضعف الاستئناس بنصوص التراث.

ويرى طه عبد الرحمان أن جلّ النقاد العرب إنما اتبعوا مناهج واشتغلوا بمفاهيم جلّها منقول من ثقافة لا تمتّ بصلة للثقافة التي ينتمي إليها التراث المدروس؛ هذه المناهج والآليات المستمدة من ثقافة الغرب؛ هي إمّا «آليات عقلانية مجردة، أو آليات فكرانية مسيّسة».

ومن أجل أن يبني طه عبد الرحمان نظريته الجديدة للتراث، كان لا بدّ أن يهدم النظريات السابقة، لذلك خصّص فصلين من كتابه لتقويم مشروع الجابري؛ ذلك أن هذا الأخير هو أكثر من اشتغل بالتراث، حيث شيد أركان منهجه في كتبه الثلاثة: «نحن والتراث»، و«تكوين العقل العربي»، و«بنية العقل العربي».

(1) عبد الرحمان، طه: تجديد المنهج في تقويم التراث، ص 12.

لقد وضع الكاتب أحد الفصول بعنوان: «التعارض الأصليّ لنموذج الجابريّ في تقويم التراث»، وحاول بيان التناقض الذي وقع فيه الجابري؛ ذلك أنّ أنموذجه في تقويم التراث، يقع في تعارضين اثنين:

**أحدهما:** التعارض بين القول بالنظرة الشموليّة والعمل بالنظرة التجزيئيّة.

**وثانيهما:** التعارض بين الدعوة إلى النظر في الآليّات وبين العمل بالنظر في مضامين الخطاب التراثيّ في الآليّات<sup>(1)</sup>.

إنّ الجابريّ، في نظر طه عبد الرحمن، كان واعياً بضرورة القراءة الشموليّة للتراث؛ كما كان واعياً بأهميّة الاشتغال بآليّات التراث الإنتاجيّة؛ بدل الاقتصار على قراءة مضامينه. لكنّ الجابريّ سقط في القراءة التجزيئيّة؛ عكس ادّعاءه العمل بالنظرة التكامليّة، واشتغل بالمضامين التراثيّة، ناكثاً وعده الذي هو الاشتغال بآليّات التراث الأصليّة.

وتتجلّى النظرة التجزيئيّة عند الجابريّ في تقسيمه للتراث إلى تقسيمات ثلاث: «عرفانيّة»، و«بيانيّة»، و«برهانيّة»، مميّزاً بينها في المكانة، حيث جعل المعرفة البرهانيّة على قمّة المعرفة العقلانيّة في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، بينما نزل بالمعرفة العرفانيّة إلى أدنى درجات العقلانيّة، ووضع المعرفة البيانيّة في المرتبة الوسطى بين البرهان والعرفان. يقول الجابريّ عن المجالات المعرفيّة التي اختصّ بها التراث العربيّ: «البرهان»، و«البيان»، و«العرفان»: «فالبيان كفعل معرفيّ هو الظهور وإظهار الفهم والإفهام، وكحقل معرفيّ هو عالم المعرفة الذي تبنيه العلوم العربيّة الإسلاميّة الخالصة؛ علوم اللغة وعلوم الدين... وكنظام معرفيّ هو جملة من المبادئ والمفاهيم والإجراءات التي تعطي لعالم المعرفة ذاك بنيتها اللاشعوريّة... وأمّا العرفان كفعل معرفيّ فهو ما يسمّيه أصحابه بـ«الكشف» أو «البيان»،

(1) انظر: عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، م، س، ص 29.

وكحقل معرفي هو عبارة عن خليط من هواجس وعقائد وأساطير تتلون بلون الدين الذي تقوم على هامشه لتقدم له ما يعتقد العرفانيون بأنه «الحقيقة» الكامنة وراء ظاهر نصوصه... (وكنظام معرفي يتمحور) حول قطبين رئيسيين؛ أحدهما يستثمر اللغة بتوظيف الزوج الظاهر/الباطن، والثاني يخدم السياسة... وذلك، بتوظيف الزوج الولاية/النوبة، وأما البرهان كفعل معرفي فهو استدلال استنتاجي، وكحقل معرفي هو عالم المعرفة الفلسفية العلمية المنحدر إلى الثقافة العربية عبر الترجمة، ترجمة كتب «أرسطو» خاصة، (وكنظام معرفي، يتمحور) حول قطبين: أحدهما يخص المنهج ويوظف الزوج الألفاظ/المعقولات... والآخر يخص الرؤية ويوظف الزوج الواجب/الممكن»<sup>(1)</sup>.

وعلى هذا الأساس فقد وقع الجابري في مغالطة منطقيّة، سمّاها طه عبد الرحمن، بمغالطة «ازدواج المعايير»؛ ذلك أنه استخدم معايير متعارضة؛ لأنّ كلّ حقل من الحقول المعرفيّة الثلاث مختلف عن الآخر؛ فالبرهان ينبنى على الاستدلال العقليّ، بينما البيان ينبنى على النسق اللفظيّ، وأما العرفان فينبنى على ما هو صوفيّ عرفانيّ. وعلى ذلك، فإنّ «التقسيم الثلاثي: «البرهان» و«البيان» و«العرفان» تقسيم فاسد، ودليل فساده ازدواج المعايير المتبّعة في وضعه، هذا الازدواج الذي لا يؤدّي إليه؛ إلا عدم تحصيل الملكة في العلوم الصوريّة والمنهجية، ولو أنّ الجابري اعتمد معياراً موحدًا، لكان له الخيار في تقسيمات متعدّدة»<sup>(2)</sup>.

فقد توسّل الجابريّ في تقويمه للتراث بآليات نقلها في مجملها من الثقافة الغربيّة «المعاصرة». كما توسّل، بآليات تستند إلى مبادئ مغايرة تمامًا للمبادئ التراثية؛ وهي مبدأ الموضوعيّة الذي يفصل بين الأخلاق

(1) الجابريّ، محمد عابد: بنية العقل العربيّ، الدار البيضاء، المركز الثقافيّ العربيّ، 1986م، ص 575-574.

(2) عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص 55.

والواقع، ومبدأ العلمانية الذي يفصل بين الروح والعلم، ومبدأ النظرانية الذي يفصل بين الحوار والصواب<sup>(1)</sup>.

وبنظر طه عبد الرحمان، فإن الجابري يعاني قصوراً في الإحاطة بالآليات الاستهلاكية التي وظفها في قراءة التراث؛ إذ لم يُعِرْ اهتماماً لتقدمها عند أهلها، ولا إلى الظروف التي أنتجتها، فوقع في جسيم الأخطاء، فلم يحسن استعمال الآليات التي توّسل بها؛ ذلك أن «استخدام الجابري لآلية المقابلة يخرج خروجاً عن الضوابط المنطقية المقررة فيها؛ سواء في ما تعلّق منها بالمطابقة، أو ما تعلّق منها بالمعارضة، فقد طابق بين اللامعقول العقليّ ونقيض المعقول الدينيّ... فيصير المعقول الدينيّ عنده بمنزلة اللامعقول العقليّ؛ خلافاً للمسلّمة التي صرّح بها»<sup>(2)</sup>.

ومما سبق يتبيّن أنّ طه عبد الرحمان انتقد الجابري؛ انطلاقاً من لحاظين اثنين: الأول: أنّ الجابريّ فاتته فرصة الإحاطة بالتقنيات الإجرائية والضوابط المنطقية للآليات التجريدية والتسييسية التي طبّقها على التراث. والثاني: أنّ الجابريّ سقط في تعارضين اثنين؛ هما: القول بالنظرة الكلية، والعمل بالنظرة الجزئية، ثمّ الاشتغال بالمضامين؛ عوض الاشتغال بالآليات؛ كما وعد.

إنّ نقد طه عبد الرحمان لعمل الجابريّ ليس سوى خطوة في طريقه لبناء نظريّته عن التراث، نظرية تتأسّس على رؤية تكاملية توظف آليات أصيلة من التراث نفسه، مراعية خصوصياته الثقافية والحضارية، دون إغفال أهميّة المفاهيم والأدوات التي تمدّنا بها الدراسات الفلسفية والعلمية المعاصرة، بعد فهم واستيعاب رصيد الحضارة الغربية الفكرية والعلمية؛ استيعاباً سليماً وصحيحاً.

(1) انظر: عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص 39.

(2) م.ن، ص 48.

إنَّ أهمَّ ميزة منهجية يؤكِّد عليها عبد الرحمان، والتي تضمن له النظرة الكليَّة؛ هي الاشتغال بالآليات التداخل المعرفي؛ أي الانشغال بالبناء الآلي للتراث؛ بدل الاقتصار على الاشتغال بمضامينه؛ كما فعل الجابري؛ ذلك أنَّ «التقويم الذي يتولَّى استكشاف الآليات التي تأصَّلت وتفرَّعت بها مضامين التراث؛ كما يتولَّى استعمالها في نقد هذه المضامين، يصير لا محالة إلى الأخذ بنظرة تكاملية»<sup>(1)</sup>.

وينطلق طه عبد الرحمان في قوله بهذه النظرة التكامليَّة للتراث من مسلّمات ثلاث؛ هي:

1. مسلّمة «التركيب المزدوج للنص»: وتقتضي إسناد كلِّ مضمون مخصوص إلى كميّات إنتاجية مخصوصة<sup>(2)</sup>.
2. مسلّمة «تنقل الآليات الإنتاجية»: وتختصّ بالانتقال من علم إلى آخر، بصرف النظر عن مدى قرب العلوم أو بعدها من بعضها الآخر<sup>(3)</sup>.
3. مسلّمة «تشيع التراث بالآليات الإنتاجية»: وموَّدى هذه المسلّمة أنَّ فهم النصِّ التراثي لا يمكن أن يتمّ؛ إلا بفهم الآليات التي وظّفها أهل التراث في بنائه؛ «بحيث لا يمكن فهم هذا النصِّ حقَّ الفهم، ولا تفهيمه حقَّ التفهيم؛ بغير معرفة تامّة بأصول وفصول هذه الآليات»<sup>(4)</sup>.

إنَّ هذه المقاربة التكامليَّة تنظر للتراث من جهة تداخله المعرفي؛ هذا التداخل الذي يميّز فيه طه عبد الرحمن بين درجتين اثنتين؛ هما: درجة التراتب بين العلوم والمعارف، ودرجة التفاعل بين مختلف العلوم وتأثير بعضها في البعض الآخر؛ سواء كانت هذه العلوم تنتمي إلى الثقافة العربيَّة- الإسلاميَّة، أو كانت مستوردة من الثقافات السابقة؛ إذ كلُّ العلوم

(1) عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص 81.

(2) انظر: م.ن، ص 81.

(3) انظر: م.ن، ص 82.

(4) م.ن، ص 82.

العقلية والنقلية في الثقافة الإسلامية يرتبط بعضها ببعض، وإن اختلفت درجة القرب والبعد بين علم وآخر<sup>(1)</sup>.

فقد اختار طه عبد الرحمان أبا إسحاق الشاطبيّ أنموذجاً للتداخل المعرفي؛ ليردّ على الجابريّ الذي اعتبر أنّ الشاطبيّ امتداد للبرهانية الرشدية التي أنتجت فكره المقاصديّ، بينما يرى طه عبد الرحمان أنّ الشاطبي استمدّ فكره المقاصديّ من أهل العرفان «رجال التصوّف»، وليس من ابن رشد، وبذلك يكون العرفان هو الذي صقل تجربة الشاطبيّ وأعطاه تميّزه في مجال المقاصد.

إنّ الحقيقة التكامليّة للتراث تكمن في التداخل الذي حصل بين المعارف والعلوم، والتفاعل الذي حصل بينها بدرجات مختلفة، إذ يبرز تراتب العلوم علاقات التقارب والتشابه والتدرّج في تحصيل المعارف؛ حسب طبيعة كلّ مجال، وتفاعل العلوم يبرز مدى التعالق والتشابك بين المجالات المعرفية وارتباط بعضها ببعض إلى درجة امتزاج مصطلحات العلم الواحد بمصطلحات غيره من العلوم<sup>(2)</sup>. ويميّز طه عبد الرحمن في النظرة التكامليّة بين التداخل الداخليّ - ويعني حصول الاندماج بين علمين أصليين؛ كحال علمي أصول الفقه وعلم الحديث، أو بين علمي الكلام وعلم اللغة... ويقدم الشاطبيّ بوصفه أنهض مثال على هذا التداخل المتمثل أساساً في علم أصول الفقه، وعلم الأخلاق؛ لأنّ الحكم الشرعيّ، حسب طه عبد الرحمن، يجمع بين وجه فقهيّ ووجه أخلاقيّ متشاكلين في البنية ومتكاملين في الوظيفة ومتفاضلين تفاضل المقصد والوسيلة<sup>(3)</sup>- والتداخل الخارجيّ؛ ومعناه حصول اندماج بين علمين؛ أحدهما أصليّ، وآخر غير أصليّ، مع ضرورة ضبط اتجاه هذا الاندماج، فيكون التداخل الخارجيّ على نوعين يختلفان باختلاف هذا

(1) انظر: عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، م.س، ص 91.

(2) انظر: م.ن، ص 90.

(3) انظر: م.ن، ص 123.

الاتجاه: التداخل الخارجي القريب؛ ومفاده تحقق مبدأ الاندماج من العلم المنقول إلى العلم الإسلامي، حسب مقتضيات المجال التداولي الأصلي. والتداخل الخارجي البعيد؛ ومفاده تحقق مبدأ الاندماج من العلم الإسلامي الأصلي إلى العلم المنقول، مع إمكانية الابتعاد عن المجال التداولي الإسلامي الأصلي، والتوجه إلى المجال التداولي المنقول منه<sup>(1)</sup>. ويرى طه عبد الرحمن أن ابن رشد هو أنهض مثال على هذا النوع من التداخل الخارجي البعيد، من خلال إدخال علم الكلام في الفلسفة الإلهية في خطابه.

ولا يقف طه عبد الرحمان عند هذا الحد، بل يحاول في نقده للجابري نقض برهانية ابن رشد نفسها، حيث يبين أثر علم الكلام في فلسفة ابن رشد؛ ليرز أن ابن رشد ما هو إلا مقلد.

### خاتمة:

إنّ كلتا الأطروحتين تقوم على نقد الأطروحات السابقة؛ فالجابري يني أطروحته على نقد القراءات التي وصفها بالسلفية؛ وهي السلفية الدينية، والسلفية الأوروبية، والسلفية الماركسية، حيث بين عيوبها وطرح نظرية الفصل والوصل؛ لتكون بديلاً لتلك القراءات، والطريق نفسه قد سلكه طه عبد الرحمان ليشيد أركان نظريته في التراث، فهدم نظرية الجابري؛ لما بدا له فيها من عيوب وتناقضات، بل تجاوز ذلك ليوجه نقده للذي قدسه الجابري؛ ألا وهو ابن رشد؛ وليبين تأثر فيلسوف قرطبة بعلم الكلام.